التفسير الكيميائى
لأعمال العقل والحياة

للأستاذ حسين الظريفى

إن الحقائق العلمية التى أسفرت عنها بحوث الكيمياء الحيوية قد دلت على ارتباط مظاهر العقل والحياة بما يحمله الدم من مواد

قال أحد علماء علم الأحياء : « كنت أرتاب قبلاً فى أن البحوث الكيميائية الحيوية والكيميائية النفسية تستطيع أن تسفر عن رأى من الآراء فى ظاهرة ليست من ظاهرات الطبيعة والكيمياء ، إلا أننى الآن أرى غير ذلك . ولأضرب على ذلك مثلاً قريباً بما قد يستطيعه بعض العلماء فى المستقبل من القطع بأن نقصاً فى إحدى مركبات الفسفور ، وزيادة فى فعل الثأكسد فى ناحية معينة من قشرة الدماغ ، يصحبان دائماً العبقرية فى الشعر

ولنستدل على حقيقة عنوان المقال ببعض آثار ما تفعله الغدد الصماء ؛ فقد ظهر أن هرمون البرولاكتين ، وهو مما تصنعه وتدفعه الغدة النخامية فى فصها الأمامى ، ذو أثر خاص عند الإناث ، يدل على أن حب الأمومة قائم على أصل فزيولوجى ممثل بشكل مادة كيميائية قد تكون مؤلفة من جزيئات زلالية كبيرة

وعند ما يبلغ أحدنا دور المراهقة ، تبدأ الغدد التناسلية بإفراز هرموناتها الخاصة ، تلك التى تبدو على أثرها أعراض الصفات الجنسية الثانوية ، مثل ظهور الشعر فى الوجه وتضخم الصوت عند الذكور ، ونمو الحوض والصدر وترسب الشحم تحت الجلد عند الإناث . فإذا كان فى الغرائز الجنسية ما يبعثها على التهيج والنشاط ، فإن الطبيعة تسلك فى تهدئة هذه الغرائز طريقاً كيميائياً يحدثه لها هرمون البرولاكتين . فقد ظهر أن من مزاياه عرقلة فعالية الغدد التناسلية عند ما تكون بها حاجة إلى التهدئة

على أن هذه الكتلة النسيجية الحمراء المستكنة فى منخفض عند قاعدة الجمجمة التى لا يزيد وزنها عن نصف غرام ولا يربو حجمها على حجم حمصة كبيرة — وأعنى بها الغدة النخامية — تعتبر الغدة الحاكمة فى الجسم وإليها مرد الفضل فى أعمال النمو البيولوجية

كذلك ظهر أن هرمون الثيروكسين ، وهو مما تفرزه الغدة الدرقية ، يقوم بأعمال الهدم والبناء فى جسم الإنسان ، وإذا قل مقداره عن حده المعتدل تعرض الإنسان للبله وقصر القامة ؛ وأن بتأثير هرمون هذه الغدة يتميز الأذكياء عن الأغبياء والأقوياء عن الضعفاء بالرغم من أن ما يوجد منه فى الجسم مقدار يسير

أما هرمون الأدرنالين ، وهو مما يفرزه الكظران ، فذو علاقة كبيرة بالتعبير عن الانفعالات القوية ، ذلك أنه يؤثر فى الشجاع فيقدم وفى الجبان فيحجم ، ولهذا يزداد إفراز هذه المادة إذا تعرض الإنسان إلى خطر ، وبمقدار هذه الزيادة تزداد قوته العادية فيندفع إلى القتال والاستبسال أو إلى التماق بأذيال الفرار

وقد وجد الأطباء أن مركز الانفعال كائن فى جزء من مؤخرة الدماغ ، وأن بينه وبين الكظرين صلة وثيقة ، فإذا وقف الإنسان فى موقف أغضبه أو أخافه ، فإن مركز انفعاله فى الدماغ يرسل فى الجهاز العصبى سلسلة من الرسائل إلى الكظرين فتحملهما على إفراز هرمون الأدرنالين ليوصله عن طريق الدم إلى الكبد ، حتى إذا وصله حمله على إطلاق بعض السكر المخزون فيه ليجهاد طاقة جديدة ، يدفع بها المرء عنه الخطر بالمقاتلة أو المزيمة

إن هذه الحقائق العلمية تذكرنى بما كتبه أحد الأساتذة فى موضوع الرقة فى النفس والذهاب إلى أنها من مظاهر القوة دون أن يقوم هذا التقرير على غير مجرد التفكير والأدلاء بالأدلة البيانية . والواقع أن رقة النفس كـكل ظاهرة أخرى إنما تقوم على أصول فزيولوجية تبعثها بعض المواد الكيميائية ، وليست هى وليدة ضعف أو قوة ، وقد تجد قوى النفس أو الجسم قاسياً أو رقيقاً

إن جريمة القتل وهي أفظع ما يجره الإنسان على غيره ، قد تصدر عن رجل لم تعهد فيه القسوة أو الغلظة ، ذلك لأن الجاني لا يقوم بالجريمة مندفعاً بعامل من دماغه ، وإنما هي شيء يقع مما وراء الدماغ ، حيث يقوم الخال في توازن ما تفرزه الغدد الصماء ، حتى لقد قال أحد العلماء :

إن غدد القاتل هي التي تسحب المسدس وتسدده نحو القتيل وتطلق عليه النار فترديه ، وأن غدد السارق هي التي تنقل قدميه إلى مكان الجريمة ، وهي التي ترفع يديه لأخذ مال الغير ، وهي التي تدفع به إلى التواري والهرب .

فالإنسان من حيث تركيبه الكيميائي يقوم بالإجرام كما يقوم بنبيره . ومظهر الرقة ولطف المزاج قد يكون في الجاني وقد يكون في غيره ، بالنظر إلى قيام أو عدم قيام المواد الكيميائية التي ينبعث عنها ذلك المظهر .

وما تقدم في صدر هذا المقال عن قرض الشعر لا يخرج عن حدود الواقع ، وقد ضربتُ لقريحة الشاعر مثلاً بالبطرية الكهربائية ، فتأليف القصيدة يستهلك من قوى القريحة ما تحتاج فيه إلى أمد تستطيع به إعادة خزن ما فقد ، شأنها في ذلك شأن البطرية الكهربائية فإنها تحتاج إلى الشحن المستديم بقدر ما تطلق من كهرباء .

هذا قانون طبي يجري حكمه على قريحة الشاعر كما تنفذ كلمته على البطرية الكهربائية سواء بسواء . والنتيجة الحتمية لهذه الخاصة الآلية ، هي أن الشاعر إذا أجهد ذهنه في قرض الشعر غير مبال بالاستهلاك دون التعويض ، انحدر شعره إلى هوة الضعف في معانيه ومبانيه ، كشأن كل مصباح يوصل بتيار بطرية لا يأتيها المدد بعد أن تنفد .

إن عمل الفنان ، ورجل الصناعة ، وجناية الجاني ، كل أولئك آثار ما تنفعل به مجاميع المواد الكيميائية ، ولكن مجال هذه المواد لم يزل البحث فيه عند بداية طريق طويلة ، ومتى يصل البحث فيه إلى القرونة ، يظهر كل شيء عند هذه المواد .

(بغداد) عبد الظريفي الحمامي

الرسالة في سنتها العاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء ، مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعد ذلك